عراقيون من زمن التوهج
ملحق شهري يصدر عن مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

كـــي لاننســـى خلــف الــدواح

ضياء حميو

النشأة والبدايات

ولد «أبـو كاطع» شمران يوسف محسن الياسري عام ١٩٢٦ في محافظـة الكـوت، قضـاء الحـي، قرية « محيرجـة» التي تسمـى الان ناحيـة « الموفقيـة». وإنحـدر من عائلـة «سادة» ياسريـة تمتعـت عائلتـه بمكانـه دينيـة مميـزة في حوضِ الفـرات ودجلـة، إذ إن سيد مالك الياسري هـو إبن عمه. علم «أبـو كاطـع» نفسـه الكتابـة بعد أن علمتـه والدتـه القراءة، حيـث كانت تجيد قـراءة القرآن فقط. يقـول «أبو كاطع» عن هـذا في رسالـة خاصة للدكتورة سمـيرة الزبيدي :.(كانت أمـي تحسـن قِراءة القـرآن فقـط، والغريب إنها كانـت تقرأ القـرآن جيـدا.. ولكنها لا تعرف قراءة سطـر واحد من كتاب آخـر.. ولا تعرف خط إسمها.. ومع ذلك علمتني قِراءة [جزء عـم].. وحين إمتلكتُ مفاتيح تركيب الحـروف علمتُ نفسي الكتابة).

كان «أبوكاطـع» عصامياً، بكل معنـى الكلمة.. لم يتخرج في جامعة أو معهد أكاديمي، حتى دراسته للصحافة في سنوات السبعينيـات في ○معهـد الصحافـة الـدولي□ في ألمانيـا الديمقراطية. آنذاك، لم يكملها..! ماكان يطيق الجلوس على كرسي الدرس وماكان يطيق قيود الدراسة،

[يشـير في حكاياتـه. المجموعـة الأولى.]○بصراحـة «أبو كاطـع»□إلى كيفيـة تعلمـه الإنكليزيـة.. عـن طريق قاموس (إنكليزي.عربي) في السجن حيث كان يحفظ المفردات.

عمـل أوائـل الخمسينيـات في مشـروع الدجيلـة الزراعي، ولكنـه، وفي أثر فشل المشروع غـادر باتجاه بغداد في العام ١٩٥٤- ١٩٥٥ .

وفي بغـداد كان يَدرس مساءً في المدرسـة «الأهلية».. حيث تعلم أصول المحاسبة، أما نهاراً فإنه كان يشتغل محاسباً في شركة « عبد العزيز ناصر «.

أشتغـل عـام ١٩٥٧ في وزارة الإعمار.. ثم عمل مديراً لقسم التوجيـه والنشر في.وزارة الإصلاح الزراعـي.بعد ثورة ١٩٥٨.

مشواره في الصحافة والإعلام

كُنيّ «أبوكاطع» بعـد أن اشتهر برنامجـه الإذاعي بعد ثورة ١٤ تمـوز ١٩٥٨، (احچيهـا بصراحـه يابـو كاطـع) وهـو الأكـثر شهـرة في أعماله (كانـت طريقتـه الإلقائية لحكايات القـرى والأريـاف ساخرة، ومُريـرة وتحمل الشـيء الكثير مـن الرفض والتحدي مجسداً تلـك الحكايات بروح البطولة وإثـارة الجـدوى والتحذير مـن انحراف المسـيرة والدفاع عـن الفقراء).. لكن البرنامج توقـف وأعتقل «أبو كاطع» عام ١٩٦٢ أثر توقيعه على نداء السلم في كردستان.

الصحافـة لديـه هي هـمٌ يومي... ويقـول فيهـا (الصحافة لـدي ليست دعابة فحسب، بل هي مهنـة الكشف عن المشاكل الحقيقية التي يعانيهـا المجتمع، وتحليلها ونقدها وتقديمها للقـراء على نحو يساعدهم في تلمس الطريق). توجه «أبو كاطـع» للصحافـة عـام ١٩٥٣ أي قبل أن ينتمـي إلى الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٥٦.

ففي عام ١٩٥٣ أصـدر صحيفة محلية، سرية أسمها.صوت الفـلاح. مـع أربعة فلاحـين ومهندس زراعـي في مشروع الدجيلـة الزراعـي وهـي أول مـرة في تلـك المناطـق يُصدر الفلاحـون صحيفـة سريـة تدافـع عنهـم وعـن المسحوقين وتنشر آراء جديدة في الجانب السياسي والاجتماعي.

هكـذا كانـت البداية مـع الصحافة. وما بعد ثـورة ١٤ تموز مباشـرة عمـل في بغـداد في صحيفـة «صـوت الأحـرار»، «والبـلاد»، «والحضـارة « إضافـة إلى برنامجـه (احچيهـا بصراحه يابو كاطع). بعد توقف البرنامج عام ١٩٦٢ يسجن ويتم تنقله بين سجن بغداد المركزي وبعقوبة والعمارة. ولحسن الحظ يُطلق سراحه قبـل ٨ شباط ١٩٦٣ ليختفي... إذ يتمكن مـن التوجه إلى الريف سراً ويظل متخفياً حتى عام ١٩٦٨. أطلـق لحيته وجاب الريف في الوسط والجنوب واستخـدم إسمـا مستعـاراً هـو «حسـن» ليُصدر خـلال فترة السنـوات الخمس مـن التخفي صحيفـة (الحقائـق) وهـي نشـرة خاصـة إ سبو عيـة لمنظمة الكوت ا لمحليـة إذ كانـت توزع على ا لمناطـق التابعـة «للكـوت» وريـف «الكـوت الجنوبـي» (الـذي يمتـد إلى الناصريـة)، و التنظيمـات و المناطق القريبة منهـا وغالبا ما كان يُستخـدم الفرس في توزيعهـا. وكان يقـوم بالإشراف على تلك المهمـة صديقه ورفيقه أبومحيسـن . الشهيد «أحمد صالـح العبيـدي» الـذي استشهد عـام ١٩٧١ أثنـاء (زركه) حكومية على ريف الكوت الجنوبي.. كذلك كان يقوم بالمهمة أيضاً –أبو عليوي– (هاشم محسن) (الذي استشهد بدمشق. لا بزركه. حكومية بل بأجواء الغربة و الانكسار).

في الفـترة الثانية بعد ١٩٦٨ كتـب «أبو كاطع» في «التآخي» وصحيفة «طريق الشعب»، وكذلك في «الفكر الجديد».. وكان مديـراً لتحرير مجلة «الثقافـة الجديدة» التي صدرت في عام ١٩٥٣.

عموده في طريق الشعب.» بصراحه ابو كاطع»

قـد يتذكر الكثـير من القراء، أعـوام السبعينيات. حيث كان الناس يقرؤون صحيفة «طريق الشعـب» بالمقلوب.. أي من الصفحة الأخـيرة.. لأنهم كانوا يريدون الإطلاع على حقيقة الأوضاع من خلال عمود«بصراحه ابو كاطع».

كان عمـوده مجسـا... مرهفـا.. حلـواً شفيفـا.. رغيف خبز ساخـن.. ثرّا.. بالحكايـات و الأقاصيص، الحكـم و الامثال، الشعـر و المفارقـات.. كلهـا ممزوجـة.. بسخريـة شفيفـة حزينـة.. تمس شغاف القلب و العقل معـا، بتوحد ندر مثيله في عـالم الصحافـة.. (مـا شكل الذخـيرة الإبداعيـة للكاتب «أبو كاطع» هو هـذا الحشد الفلكلوري من الحكاية و الشعر الشعبـي و الغناء و أغاني العمل و التنويم و الأعراس و المآتم و الأساطير و المفارقات اليومية و الهم السياسي).

وفي لغته يقـول غائب طعمة فرمان:..((لغة مضمخة بنكهة انسـان خبر حكايـات العفاريت، و أشباحهـم و عرف تقلبات الزمان وشقاءاته، و أحابيل ذوي المصلحة.. إنه إنسان ثابت في أرضـه، يعـرف كل شبر منها، عاليهـا و سافلهـا، حلوها ومرها.. مذاق ثمارها، وملوحة عرق الكدح فيها).

مـاكان الناس يجـدون في «أبو كاطـع» بعمـوده صحفياً.. يقـول كلمة حق بشأنهم.. بل كانـوا يجدونه مكدوداً.. متعباً مثلهم.. إبنهم الذي لم يتنكر لهم.. لسان حالهم الذي لم يتعلم المحاباة.. فيما يتعلـق الأمر (حچاية الصدك). كان خصومه في السلطـة وخارجهـا، (كما يشير شعبان) يقـرأون عموده ليعرفوا مواطن الضعف و الخلل في سلطتهم و أشخاصهم.. وليجسـوا نبض الشـارع..! إبـن المدينة و الريـف على حد سـواء يقـرأ هذا العمود.. بمـن فيهم من لايجيـدون القِراءة و الكتابـة إذ ينصتـون لأحدهـم في الدواويـن.. تماماً مثلما كانت حكاياته في الإذاعة في الفترة المشار اليها

لغـة رصينـة محكمة البنـاء.. ليسـت بمفتعلـة.. إضافة الى بساطتها وسلاستها وبنائها التكنيكي الرصين.

في «أبـو كاطـع» (تعبر الحيـاة المألوفة اليوميـة عن نفسها بيسر بلا ملحميـة و لا رمزية و لا إطناب او تعاطف خارجي، وبلغتها اليوميـة الخاصـة المزدحمـة بالأمثـال و المجازات و الكنايـات المأخـوذة مـن نفس البيئـة). وفي هـذا العمود كانـت البدايـة لخلـق شخصيتـه المتفـردة و الأثـيرة (خلف الدواح)..!!.

لا يمكـن فصـل شخصيـة «خلف الـدواح» عـن «أبـو كاطع» و لا فصـل الأثنـين عـن ريـف العـراق.. وإذا ما مثـل «خلف الـدواح» شخصية الفلاح القادم من ريـف الجنوب.. فإنه قد تماهـى بشخصية «أبـو كاطع» الحقيقة.. فعلـى لسان الأول صار يحاكي ذاته ويتجاوزها ليناقش السياسة و الأحزاب و الأيديولوجيـا بـل وينتقد كل ذلـك بلغـة ريفيـة.. مليئـة بالحكمة و السخرية.

كانت الكثـير من الرسائل تـرد من القـرّاء.. يبثون همومهم و أشجانهـم و مطالبهـم الى «خلـف الـدواح» ليصوغهـا «أبو كاطع» على لسانه حقيقة عارية تماما..

شخصيـة (خلـف الـدواح) هـذا الفـلاح العراقي القـادم من الجنـوب الى بغـداد في الخمسينيـات هاربـاً مـن الإقطـاع و الفيضانـات (القهـر الأجتماعـي و البيئـي) تزاوجـت وتماهـت بشخصيـة «أبو كاطع».

وبفضـل هذا، إستطاع مـن تغيير النظرة الى هذا الفلاح في الأدب و الصحافـة العراقيـة.. إذ إن « «أبوكاطع» وإن صنف كصحفي.. لكن خصوصيته تأتت من كونه فلاحا أولا.

بـدأ يكـوّن إسلوبه الـذي ترك بصماتـه في عـالم الصحافة منـذ توجهـه الى بغـداد عـام ١٩٥٤ وبشـكل خاصـ أواخر الخمسينيـات.. حين غدت الصحافة مهنة لـه.. وبدلاً من أن يكون الفلاح هو موضوع السخرية.. كما كان سائداً قام «أبو كاطع» بقلب المعادلة ليجعل إبن المدينة شريكا فيها.. وأحياناً موضوعها، راسماً صـوراً كاريكاتورية لم تعرفها الصحافة من قبل عن أبن المدينة، من خلال توظيفه تراث الريف الفني في ذلك.. لم يعرف المواربة، كان يثق تماما بمقدرة قارئة على قراءة مابين السطور حين يتعذر الإفصاح عن الحقيقة بشكل مباشر ويحترم ذكاءه أيا كان مستـواه المعرفي وهو يصفه مثل «المفتح باللبن». لايمايز في توجيه نقده وإحتجاجه أكان المخطيء رفيق درب ام عدو..!! لكن هذا الأمر ماكان يمكن أن تهضمـه العصابة الحاكمة (ماكان يشتم بل كان يسخر ومن خلال سخريته كان يعرّيها).. فتبين سوءاتها وقبحها، جهلها وبربريتها.. كيف يمكن التحالف مع كل هذا؟ كان لابد من أن يوقف من النشر وهذا ماكان، جرت محاولة لدعسه بسيارة على طريق الكوت ولكنها فشلت فأعدوا تهمة تهريب السلاح بغية إعدامه.

يؤكـد «حميـد الياسـري إبن اخ «أبـو كاطـع» إن السبب في إرسالـة للدراسة هـو إبعادة عن الجريـدة في بغداد، لأنه لم يكـن منسجماً مـع النهج السياسي السائـد حتى أعفي تماما عـن الكتابة عـام ١٩٧٦ فإضطـر الى مغادرة بغـداد متوجهاً الى» براغ».

وبنفـس القضية يقـول «أبو كاطـع» في رسالـة موجهة الى الدكتـورة « سمـيرة الزبيـدي»(١٠) واصفاً تلـك المرحلـة: ((غـادرت العراق أواسط عام ١٩٧٦ هارباً من تهمة –اقلن– أقلـن الإعـدام.. تهمـة توزيع السـلاح و الفايل امـام محكمة الثورة)).

الى بـراغ حمل دفـتراً أطلق عليه «دفـتر الممنوعات» يضم بين دفتيـه المواد التي لم توافق هيئة تحرير صحيفة «طريق الشعب» و «الفكر الجديد» على نشرها!

تجـدر الإشارة الى إن منفى «أبو كاطع» في «بـراغ» لم يكن هينـا.. إذ إنـه أيضـا تعرّض الى المضايقـة و المحاسبـة.. اكـثر من مـرة.. وجرت محـاولات مغرضة من قبـل البعض وبأساليـب رخيصـة لتشويه سمعته ومواقفـه، وكان سيف تجديد الإقامة له في» براغ» مسّلطاً دوما على رأسه.

كان آخـر ممنوعاتـه مـادة كتبهـا الى «طريـق الشعـب» قبل مغـادرة بغداد.. تحدث فيها عن –الظهر و الظهيرة و الظهير– و الظهير هو الحليف.. المقصود البعثيين.. زمن الجبهة!

تحـدث «أبـو كاطـع» في إحـدى الليـالي الخريفية مـن عام ١٩٧٦ مشيراً الى إنه يشعر ضمن المشهد السائد مثل (المعّكل بالمرقص وهو معّكل بمرقص التحالف.. الناشز..

تنبّه «أبو كاطع» مبكرا الى هذا الخطل.. وعبثيته، ووصوله الى طريـق مسدود.. خصوصاً مـع إستخدام الطرف القوي لهـذه العلاقة ليكون أقوى «أبو كاطع» في هذا حكاية.. تجدر الأشـارة لها.. وردت في روايته قضية حمزة الخلف» (١٢) : (في إحـدى ليالي الصيف فزّ الخروف من النوم، وسأل من هـذا الذي وطئني؟ فأجابه العنز: أنا سيدك الصخل.. ووقف يباهي بقرنيه، مغـروراً بشحمه ولحمه.. يتنسم هواء الليل العليـل.. مـرت الأشهـر.. وجـاء الشتـاء وذات ليلـة قاسية البـرودة صحـا الخروف مـن نومـه وتساءل من هـذا الذي يختـل بجانبي ويحتمي بفروتي؟ فاجابـه العنز: انا خادمك الصخيـل..!!).في رسالتـه السالفة الذكـر للدكتورة سميرة الزبيـدي يضيف «أبـو كاطع»: بقيت لاجئـاً غير سياسي في (تشيكوسلفاكيـا) أظلنـني كنت أول لاجـىء أو مهاجر.. ففي عام ١٩٧٦ كانت الجبهة ما تزال في.زواك العرس.و البخور يفوح من طيات ثيابها.

كان في مجالسـه الخاصـة يطلـق علـى الجبهـة تسمية الچبحه (أي العـثرة أو السقطة).للغـة العامية في أواسط السبعينيـات، إتخـذت السلطـة موقفـاً سياسيـا ضـد العاميـة بدعوى حماية الفصحى.. (الأمر الذي نكصت عنـه بعد إندلاع الحرب مع إيران عام ١٩٨٠ وحاجتها للعاميـة للدعاية للحـرب).. وحقيقة موقف السلطة من العاميـة.. هـو إن أغلب مـن استخدموا العاميـة فنياً كانوا محسوبين على اليسار بطريقة أو أخرى!

(اللهجـة الجنوبية) لهجة ساحـرة.. ثرة تنساب بموسيقى خاصـة.. واذا مـا جاز لنـا أن نطلق صفـة ذكيـة علـى لغة مـا.. فـان الجنوبيـة كذلك إذ إنهـا تـزاوج بـين تـراث الفصحـى و المـوروث المحكـي.. كذلـك إستخدامهـا الحسچـه «التوريـة»، بتلقائية وبمنتهى البراعة.

وعامية «أبـو كاطع» من هذا المخزون.. ولذا تمتعت بقوة.. ومرونـة، ونفـاذ معـا (وقد انفـرد «أبو كاطـع» بهذا الفن الرفيـع. وحاولت السلطات الفاشيـة» قبل وبعد ١٩٦٨» أن تجـد لها فنا يشبه الحكايـة الشعبية التي قدمها «أبو كاطع» كي تكون خصماً لدوداً له لكنها باءت بالفشل).

في البدء كان هاجس»أبو كاطع» من إستخدامه العامية هو التوجه لمخاطبة الفلاحين ولكنه فيما بعد تجاوزها الى أن تشمل إبن المدينة ولتغدو سمة مميزة من ميزات أدواتـه الإبداعية. (لقد كان «أبو كاطع» يملك صفة رائعة متأصلة فيه وهي التسـاؤل، إنه مثل فلاح، يجابهك دائماً في جلساته الودية بالأسئلة التي تجعلك أحياناً في موضع محـرج، أو تضعك علـى المحك، فإما أن تجاريـه بتساؤلاته المشروعـه واما أن تبلع لسانـك وتسكت، والعجز عن إتخاذ موقف، وهذه الصفة جعلها «أبو كاطع» ملكاً مشاعاً للراغبين في تبنيهـا بإخلاص من أبطال قصصه. وذلك ينبوع لحرارة الصدق فيما خلفه لنا من أدب قصصي وخواطر).

فنه الروائي

تعرض «أبـو كاطـع» الى العديـد مـن الممنوعـات.. سجن، اختفـاء.. منع تقديم برنامجه الإذاعـي عام ١٩٦٢.. وصولاً الى رفض طبع رباعيتـه(أو تقديم الدعم لهـا من قبل وزارة الإعـلام.. فاتخذت مجلـة الثقافة الجديدة عـام ١٩٧٢ قراراً بنشر الروايـة طالبـة مـن الراغبـين في إقتنائهـا تسديـد ثمنهـا سلفا.. وتم لـ «أبو كاطع» ماأراد.. حيـث أقبل العديد مـن القراء على شـراء روايته قبـل صدورها.. وهـذا يفسر ويوضـح تماماً مدى العلاقة وحميميتها التي ربطت «أبو كاطع» بقرائه.. بل وثقتهم بنتاجه الأدبي.

الرباعيـة هـي العمـل الروائـي الأول لـه وكانت بأربعـة أجـزاء: الزنـار، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ، وفلوس أحميّد.

تـدور أحـداث الروايـة في إحدى قرى الغـراف علـى مـدى يقـارب أربعـين عامـاً، تبـدأ الأحـداث وذكريـات ثورة العشريـن ما زالت طازجـة تحديداً عام ١٩٢٣، حيـث تسـود الريـف علاقـات شبـه مشاعيـة، ساعـدت علـى بقائهـا قيـم قرويـة موغلـة في قدمهـا وقسـوة الظـروف المختلفة الأمـر الذي إستلزم حياة جماعيـة لمجابهتها.. وفي الرباعية تصوير رائع وذكي لعمليـة تفكيك المشاعية الريفية. في تلك الفـترة كان الإستعمـار البريطـاني قـد حسم أمـره في عدم إدارة العـراق من خلال الضم المباشـر كالهند، (الخيار الذي ابعدته ثـورة العشرين)، نصّب الإنكليـز ملكاعربيا للعراق، ولكن إدامة الملـك تستوجب قاعدة إجتماعيـة، مميزة تسَهّل مهمتـه.. ولتحقيـق هذه المهمة قـام الإستعمـار مستفيداً من تجربتـه في الهنـد ومصـر بتفكيك وتحطيم منظـم وهادىء في البـدء للمشاعية هذه (إذ لاسلطة لفـرد على آخر إلاّ القيم والأعراف).. وهذا ما يتعارض كل التعارض مع شروط بناء قاعدة الحكم آنذاك.. وشرطها الرئيسي الإذعان...!

كيـف يُذعـن أفراد العشيرة بـدون وجه حـق لشيخهم..؟! إذ كان الشيـخ خيارهـم.. يشبـع حـين يشبعـون ويجوع حين يجوعون!.

حين يستدعي الحاكـم الأنكليزي شيوخ العشائر يكون أحد المدعويـن «سعدون ابن مهلهـل» (ماكان الأخـير يطيق لبس اللباس الداخلي)، وفي خضـم إستعداداتـه للسفر وملاقاة الحاكـم يستعير نعالاً من «أبـو البينـة».. إذ إن نعاله البالي لايليق لوجه الحاكم الإنكليزي على حد تعبير «حسين» شاعر القبيلـة وحكيمهـا.. حين يكـون الموسم الزارعـي جيداً فهو للجميع وحين يكون خلافه.. فشيخ العشيرة ملزم بالتقشف مثلهم، قوانين الطبيعه هذه في ريف العراق الجنوبي ماكان لها أن تساعد في تثبيت الحكم الذي شاءه الإنكليز للعراق.

ولذا قـام المستعمرون بمنـح إمتيازات في المـال و الأراضي و«المكنَنَه« خصوصا بها رؤساء العشائر، ما امكنهم من زراعة «السيح» بدل الإقتصار على الديم (الأمطار) الأمر الذي سهل تحقيق فائض إنتاج لديهم و أفرزهم كطبقة إجتماعية مميزة لها شروطهـا وظروف ديمومتها التي تلتقـي مع المستعمر.. روحيـا وماديا.. وتتعارض مع العـوام الذين صاروا أجراء بعـد أن كانوا شركاء و أو لاد عم في المشاعة الريفية المفككة.. وانتقل الشيـخ ليسكن في قصره بعيداً ومميزاً عن بيوت العشيرة.

في الرباعيـة يرد تفهم هـذا التحول وإستهجانـه على لسان «حسـين» في خضم رده علـى زوجته بشأن عهد خطبة قديمة (بنت «سعدون» لولده «ناصر») دارت بينه وبين سعدون في أيام ماقبل التحول الإقطاعي (سعدون لم يعد منا، إنفصل عنا نهائياً. أصدقاءه من الشيوخ وكبار «السراكيل»، لايستمرىء إلا النعـوت التـي يطلقهـا عليـه «الخضـارة» وأصحـاب الإبـل. صـار اسمـه الرسمـي « الشيـخ « وطويـل العمـر. يُجـاب إذا صـوّت بكلمـة «عونك» ولايخاطـب إلا بلفـظ محفـوظ.. وأحسب إنـه يتقـزز من مخاطبتنـا إياه بلا ألقـاب و لا أدعية بطول العمـر).. في الحالـة هـذه حتى الزواج يغدو خروجا علـى قوانين الحيـاة التي اعتادوهـا وتأقلموا معهـا.. لايستطيع «حسـين» أن يتصور زوجـة المستقبـل لأبنه مـن دون ان تكون شريـكا في العمل كما هي زوجته وقبلها أمه.. وما إعتادته العشيرة.. منذ زمن بعيد(١٩) (شنهو معنى تحصين بت سعدون؟ يا بعد حصان إبوي».. ومـا دام صارت البت إمحصّنـه شنهي رفجتها وي ناس مثلنا؟ من كـون مَرْت الفلاح إمحصّنـه «يابعد إحصان ابـوي!» لازم يشتريلها وصيفـه تخدمهـا. ومـن كـون مرة الفـلاح بكبعـه وسرسوحه «يابعد كبعة أمـي وسرسوحتها» ياهو اليحصد وياهو اليحَضن؟).

النهـم البسيـط للتمايـز يكبـر ليتضخـم ويغـدو ابتلاعـا سافـرا...

حصـة المضيـف (الديوان) التـي كانت تدفع طوعـا لتغطية مصاريـف العشـيرة في (الديـوان).. إستقبـال الضيـوف، الأفراح،و الأتـراح، القهـوة، بل حتـى «التـتن» (التبغ) الذي يدخنونـه..! في الديوان هذه الحصة صـارت تدفع أضعافاً مضاعفـة مـن دون أن يكون الشيـخ ملزماً بـأي شيء تجاه العشيرة عدا كونه رمزا ماعاد باستطاعتهم خلعه.

(إن أهميـة الرباعيـة تكمن في محاولتهـا، فهي أول طرح في تاريخ الرواية العراقية لقضية الأرض من منظور الثورة)

إن هاجـس أن يصبح «أبو كاطـع» روائيـا لاصحفيـاً وحسـب.. كان يلازمـه.. خزيـن هائل مـن التجربة الذاتية المميزة، و الحكايات التـي لاتنضـب.. مـاكان للصحافـة أن تستوعبهـا وحدهـا.. وهكـذا ولـدت الرباعيـة.. يقـول «غائـب طعمـة فرمـان» في لقائـة الأول ب«أبـو كاطـع».) (في عـام ١٩٦٩ في أحـد مقاهي شـوارع السعدون كان اللقاء، وبدا كأن أحدنا يعرف الآخر منذ عهد نوح، وهذا التعبـير مستلهـم من روح «أبـو كاطع».. أسرّ لي قائلا: هل تحـب القـراءة..؟.. قـراءة أي شيء.. نعم دفـتر متواضع.. القضيـة كلهـا يامحفوظ السلامـة يعجبني أصـير روائي.. چا بس إنتوا..!! شوفهـا واحكم عليها رواية لو خرط..!).. ثـم يسترسل «فرمان» واصفاً عـوالم الرواية.. (أخذ يتنامى في خيـالي المبصر عالم متجسد رحب مغمور بأنفاس الريف وأناسـه، صنعـه قلم ذو دراية ممتـازة بما يريـد أن يقول.. حب عارم للوسط الذي يصوره ومعرفـة مستفيضة بخبايا الحياة الريفيـة وحنايا سكانها الواقعيـين الى حد إحساس القارئ بأنفاسهم تدفئ قلبه). يصف «أبو كاطع» شخصيات روايتـه في خضـم رده علـى رسالة وزارة الإعـلام ورفضها طبـع او تقديم الدعم (٢٢) (إنني أحمل أصدقائي بين يدي.. أصدقائـي الذين عايشتهم ليالي الشتـاء الطويلة، أحاورهم وأتخيلهـم.. أبـدل بعضـ ملامحهـم.. أضيـف عبـارة، أو أحـذف لفظة.. وفي نهاية المسيرة مع «الدفترين» (مخطوطة الروايـة).. توطدت علاقاتي مع «حسـين» بطل الرواية على نحـو عجيب.. أناجيه وأناغيه، أحيانـا أصغي الى أشعاره، وكأنني أسمع صوته، برغم مسافة السنين).

لايوجد بطل متفـرد في عمل «أبو كاطع» هذا وكذا هو الحال في عمله الروائي الثاني((قضية حمزة الخلف» وهي رباعية أخرى لم تكتمل، وهي إمتداد للرباعية الأولى.. في الرباعية الأولى نجـد «حسين» شاعـر العشيرة وحكيمهـا يموت قبل أن يتـوج حلمـه بالخلاص مـن الإقطـاع وهو بطـل متفرد علـى طريقته، كذلك «خلف» المتشبـث بأوهام ثبات إخلاقيات العشـيرة الأولى عنـد «الشيـخ سعـدون» هـو بطـلاً آخـر، و«ناصـر إبـن حسين» شهيـد «كاورباغي»، بـل حتى البخيل الجبان «أحميّد أبو إلبينه».. بطل للجزء الأخير من الرباعية «فلوس حميّد». (في عالم «ابو كاطـع» كل شيء جائز: الغنام يصبـح فلاحا و الفلاح غناما و السركال عاملا وهؤلاء جميعا شيوعيين، و الشرطـي إنسانا و الإنسـان شرطيا و الضعيف قويـا و القـوي ضعيفـا.. كل شـيء جائـز.. حتـى البطولـة و التاريخ لاينظر إليهمـا «أبو كاطع» كمقولتين مجردتين، بل كواقع محسوس).

و الروايـة وإن تناولـت الصـراع بـين الإقطـاع النامـي و الفلاحـين، إلا إنهـا تناولـت بتجـرد، تفاصيـل شـؤون شخصياتهـا.. عواطفهـم، شجونهـم.. خيالاتهـم، مواقفهـم المتباينـة من حدث الى آخر.. فهـا هو (عبيد المنتاز) «سركال» الشيـخ وأداتـه الطيعة الأمينة على ممتلكاتـه.. وسلب تعب الفلاحـين، يخرق هـذا الأمر، عندمـا يتعلق الأمـر بالعاشق «ناصـر ابن حسـين» ويسّهل لـه زيارته الأخـيرة خلسة الى بيت الشيـوخ، لملاقاة حبيبته «حسنة بنـت الشيخ سعدون» التي ستزف عنوة الى إبن إقطاعي آخر.. تلك الليلة

لايُسقـط «أبو كاطع» أفكاره بإبتذال على شخوص روايته.. «عبيـد المنتاز» السـركال عاشق هو الآخر ولـذا يتضامن مع عاشـق آخر.. إنـه الجانـب الإنساني وإن تبايـن من موقف لآخر).

لقد صـور لنـا «أبـو كاطـع» في الرباعيـة و«قضيـة حمـزة الخلف»، هواجس الريف، آلامه، ظلمه ونفاقه، كذلك العشق، صدق الأحاسيس، ودفيء المشاعر.. كل ذلك بغنائية شفيفة حزينـة.. ومناجاة شجيـة.. لم يستطع أدباؤنـا الروائيون قبله، المنتمون بغالبيتهم الى المدينة مـن خوض مجاهل الريف العراقي وعوالمة كما فعـل «أبوكاطـع».. وليـس من المغالاة فيما لو قيل إنهم يعرفون عن الريف المصري أكثر مما عن ريفهم العراقي على حد تعبير «غائب طعمة فرمان

لقد صور لنا ابو كاطع في الرباعية وقضية حمزة الخلف هواجس الريف آلامه و ظلمه ونفاقه

في الروايـة الثانية «قضية حمـزة الخلـف» يتنـاول مرحلـة مابعـد ١٩٦٣.. يبتدىء بعـد أربع سنوات من الزمن الـذي توقفت عنده الرباعيـة الأولى.. بخصوص هـذه الروايـة يتساءل «عبد الكريم كاصد» عن سبب ((صمت نقادنـا إزاء روايـة مـن أهم روايـات أدبنا العراقـي هل هو اسمهـا الذي يوحي البساطة و الشعبيـة أم كاتبها الذي تراه السلطة صحفيـا دون مستوى الكتابة الأدبيـة؟!). الأحداث في«قضيـة حمـزة الخلـف» تتابـع تعّقد الحيـاة السياسية و الإجتماعيـة في تلـك الفـترة.. لم تعـد السياسـة بطـراً..! فمنجزات الثورة الأولى صارت تتآكل ولم يعد الريف عذرياً «و الشرطـة السيـارة» تجوبه بحثـاً عن خصومهـا، الإقطاع يحاول إن ينتقم، وكذا العسكر، ومدّعي القومية، و الخصم هو كل من دافع عن الثورة وعبد الكريم..!!

تدخلـت المدينة بخصوصية الريف.. و استباحته لأن الأخير دخـل مبكراً في لعبـة السياسـة.. الأمر الـذي أرادته المدينة حكـراً عليها.. ولكـن قسوة الحياة التـي كان يديرها الحاكم المديني لم تـترك لـه خيـار أن يكـون محايـداً.. فإبتلـى بها خصوصـاً بعد ثـورة ١٩٥٨. وفي هـذا يصّـور «أبو كاطع» هـذه البلـوى.. إذ وردت علـى لسان إحـدى شخصياته: «أم مطشـر زوجة حمزة الخلـف» التي تطالـب بالتقتير (الشاي تعودنا عليه حتى الإدمان و لاخلاص منه و الراديو لابأس به لو لا تكاليفه.. نسمع بعض الحكايـات و الأغاني، ولكن «الچباحـه « أي السياسـة، ماحاجتنا لها!).

لايوجد بطل متفرد في عمل ابو كاطع وكذا هو الحال في عمله الروائي الثاني

لم يعـد الريـف مسرحـاً وحيـدا لأحـداث الروايـة كمـا في الرباعيـة الأولى، بـل أن الشخصيـة الأولى في الرواية «حمزة الخلف» تتنقل بـين الأثنين، يتطور إسلـوب «أبـو كاطع» كثيرا وابتعـد عـن المباشـرة، وتكون السخرية هي ثيمته الملازمـة في هذا العمل مصـوراً فنطازية الحيـاة السياسية و الإجتماعيـة مابعد إنقـلاب ١٩٦٣.. إذ تتحـرك شخصيات «أبـو كاطـع» في هذا العمـل بانسيابيـة و تلقائيـة.. تلقائية الفـلاح المتوجس دومـا مـن إي فعـل للسلطة.. بـلا قدرات خارقـة.. أو صـدف مستحيلـة ومفتعلة.. لقد تطـور مفهوم الروايـة لـدى «أبـو كاطـع»(٢٩) (تبدت خبرتـه ككاتب في مرتبـة ناضجة إذ إنه يحرص فيها أن يقدم نماذجة البسيطة بتركيـب غير بسيط «حمزة الخلف» ،«مطشر» وبلغة فصحى لم تتخـل عـن مضمونها الشعبـي.. البطولـة في الشخصية الصغـيرة المغمـورة المليئـة بالضعـف و الشجاعـة. إنهـا بطولـة «حمزة الخلـف» المتردد الشـكاك الضعيـف الخائف الصلـب.. تلك الشخصية التي لا أبالغ إذا قلت إنها من أجمل الشخصيات الروائية في أدبنا العراقي).